



«ذي قار»

بين عواقب الغدر وثمرات الوفاء

محمد أمين أبويكر*

ذي قار تلك المعركة المشهودة التي غيرت صورة الواقع المساوي لأمة العرب في العصر الجاهلي، ورسمت لهم صورة مشرقة يدافعون فيها عن قيمهم ويذودون فيها عن حياض أخلاقهم، ويوجهون سيوفهم ورماحهم إلى صدور عدوهم بعد أن اعتادت نهش أجساد الأقرباء وإراقة دماء الضعفاء. فذي قار التي شهدت غطرسة الأكاسرة وعنجهية الدولة الفارسية تتحطم على صخرة الإباء العربي والصمود العربي، ذي قار التي شهدت القبائل البدوية تمزق جحافل الجيوش الكسروية وهي تسطر صفحة مشرقة متألقة ابتهج لها رسول الله ﷺ بانتصار بني قومه على الفرس فقال «اليوم انتصف العرب من العجم» فما أسباب هذه المعركة؟ وما مدى تفاعل الأدب معها؟

إنما الدهر لين ونطوح
يترك العظم واهناً مكسورا
فسل الناس أين آل قبيليس
طحطح الدهر قبلهم ساپورا
خطفته منيئة فتري
وهو في ذاك يأمل التعميرا
ولقد عاش ذا جنود وتاج
ترهب الأسد صولته والزئيرا
ثم ان عدياً كتب إلى صاحب له مقيم بباب كسرى يقال له أبي فقال:
فأبلغ أبياً على نايه
وهل ينفع المرء ما قد علم
بان أخاك شقيق الفؤاد
يكاد لنأيك أن يخرم
لدى ملك موثق بالحديد
إما بحق وإما ظالم
فلا تالفين كثير الرقاد
بل اضرم الرأي ثم اعتمزم
فلما قرأ صاحب عدي بن زيد هذه الأبيات دخل على كسرى
فأخبره بما فعل النعمان مع عدي بن زيد فغضب كسرى وبعث

روي أن عدياً بن زيد كان ترجماناً بين كسرى والعرب وأنه أشار على كسرى أن يولي النعمان بن المنذر ملك الحيرة وقد تم للنعمان ذلك، وأصبح يتحدث الناس عنه ويتناقلون أخباره في كل مكان من بلاد العرب، وكان عنده عبد يعرف بعدي بن قيس فوشى إلى النعمان بعدي بن زيد صاحب الفضل عليه، وزعم عدي بن قيس أنه هو صاحب الفضل في وصول النعمان إلى الملك، فغضب النعمان على عدي بن زيد وأمر بزجه في السجن رغم ما كان له من فضل عليه فكتب عدي بن زيد إلى النعمان يستعطفه ويذكره بما كان فقال:

أبا منذر جازيتني الود سخطه
فماذا جزاء المجرم المتبغض
وإن جزاء الحر فيك كرامة
وليس بنصح فيك بالمتعرض
فلم يابه النعمان بما قاله عدي بن زيد واستمر بحبسه فكتب عدي عن حبسه قائلاً:

إن للدهر صولة فاحذرنها
لا تبيتن قد أمنت الدهورا
قد يبيت الفتى صحيحاً فيردى
ولقد بات آمناً مسرورا



أعظم مرازبته في مثل ذلك وأمره أن يقفو أثر الهامر حتى يوافي إياس بن قبيصة فسارت الجيوش إلى بكر بن وائل وكانوا بمكان يسمى ذي قار على أطراف البصرة فاقبلت الجيوش حتى أتاحت على بكر فأحدثت بهم ثم إن عظماء بكر بن وائل اجتمعوا إلى هاني بن مسعود الشيباني وقالوا: إن هذه الجيوش قد أهدقت بنا من كل ناحية فما ترى؟ قال أرى أن تجعلوا حصونكم سيوفكم ورماحكم وتوطنوا أنفسكم على القتال حتى الموت، فقالوا نعم والله لنفعلن ثم إن قيس بن مسعود أقبل في سواد الليل من عسكر إياس بن قبيصة حتى أتى هاني بن مسعود فقال: يا ابن عم انه قد حل بكم من الأمر ما قد ترون ففرق خيل النعمان وسلاحه في أشداء قومك ليقووا بذلك على القتال فهي مأخوذة لا محالة إن قتلوا وإن سلموا أمرتهم فردوها إليك وعليك بالجد والصبر وإياك ثم إياك أن تخون الأمانة في تركة النعمان حتى تقتل ويقتل معك جميع قومك قال له هاني: أوصيت يا ابن عم محافظاً فوصلتك رحم وأرجو أن لا ترى منا تقصيراً ولا فتوراً. فانصرف قيس بن مسعود المعروف بذي الجدين من عند هاني كئيباً حزيناً باكياً خائفاً من هلاك قومه حتى أتى عسكر إياس وكان يريه أنه مجامع له على حرب قومه خوفاً من بطش كسرى به فلما أصبح هاني ابن مسعود دعا بخيل النعمان وسلاحه ففرقه في أبطال قومه وأشدائهم فركبوا تلك الخيول، وكانت ستمائة فرس وستمائة درع واستلأموا تلك الدروع وكان ذلك في العام الذي هاجر فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة وتفيد بعض الأخبار أن رجال بكر بن وائل اتفقوا على أن يجعلوا شعارهم باسم رسول الله ﷺ محمد يا منصور وذلك قبل أن يسلموا وبذلك الاسم نصرروا وقهروا عدوهم وعمد رجل من أشرف بن عجل يقال له حنظلة بن شيار إلى حزم رحالات النساء فقطعها كلها أراد بذلك أن يمنع قومه من الهرب إن وقعت الهزيمة، فسمي قبيصة الوضين، ثم إن إياس بن قبيصة رجل كسرى في تلك الحرب أرسل إلى بكر بن وائل يخبرهم خصلة من ثلاث، إما أن يسلموا تركة النعمان وإما أن يسيروا ليلاً في البراري فيعتل على كسرى أنهم هربوا، فإن أبوا هاتين الخصلتين خرجوا إلى الحرب، وهنا تحرك الإباء العربي وتمتلل الوفاء العربي، وأبت نخوة العربي ومروءته أن ينغمس في مستنقع الخيانة والغدر إذ فضل الرجال من بكر أن يضحوا بحياتهم وينقبلوا الموت بصدر رحب يحتفظون فيه بأسباب العزة والكرامة على حياة ذل وهوان يتنازلون فيها عن قيم عروبتهم وأخلاق قبيلتهم فاختراروا القتال ووجهوا خمسمائة من أبطالهم بقيادة يزيد بن حارثة اليشكري وأمروهم أن يكمنوا للعجم ثم زحف الفريقان بعضهم على بعض وتقدم الهامر فوقف بين الصفيين ونادى بالفارسية مردى آمردى فقال يزيد بن حارثة: مايقول؟ قال: يدعو إلى المبارزة رجلاً لرجل، فقال وأبيكم لقد أنصف ثم خرج إليه فاختلف بينهما ضربتان فضربه يزيد ضربة بالسيف على منكبه فقد درعه حتى

برجل من زبائنته إلى النعمان ليطلق عدياً ويرسل به إليه، فاقبل الرسول حتى دخل على النعمان وأدى إليه رسالة كسرى، فقال النعمان نعم أنا أطلقه، ودس إلى عدي بن زيد من قتله ثم قال للرسول: ادخل السجن حتى تخرجه، فلما دخل وجده ميتاً فرجع إلى النعمان وقال له عجلت وقتلته وأنا مخبر كسرى بذلك. فوصله بالف دينار وسأله تحسين أمره عند كسرى فانصرف الرسول فآخبر كسرى بموته.

وكان لعدي بن زيد ابن يقال له زيد فخاف النعمان على نفسه فهرب من الحيرة حتى أتى المدائن فدخل على كسرى وتعرف له فقربه وبره، فقال لكسرى ذات يوم أيها الملك، إن لعبدك النعمان ابنة يقال لها حرقة، وأختاً تسمى سعدي، وابنة عم تسمى لباب، وليس في جميع الأقاليم أحسن منهن، فكتب كسرى إلى النعمان أن احمل الي ابنتك حرقة، وأختك سعدي وابنة عمك لباب على يدي خادم له، فقال زيد: ابعث بي مع الخصي، فقال اخرج على اسم الله وعجل علي بالنسوة فخرجا حتى قدما الحيرة فدخلوا على النعمان ودفعا إليه الكتاب فلما قرأه قال: أما في عين السواد وفارس ما يغني كسرى عن العربيات السود الأبدان الحممش السيقان؟ فقال الخادم لزيد: ما يقول النعمان؟ قال يقول ما في بقر فارس والسواد ما يغني كسرى عن العربيات؟ فخرج الخادم حتى أتى كسرى فأخبره بما سمعه من النعمان وقال له: إن الرجل الذي بعثت بي إليه قد سمن وتعدي طوره، فوقع ذلك في قلب كسرى وغضب على النعمان، ودعا إياس بن قبيصة الكتاني وولاه مكان النعمان فأمره أن يكبل النعمان بالحديد ويبعث به إليه فيلغ ذلك النعمان فاستودع أهله وولده وخزائنه وسلاحه وابنته حرقة وخيله عند هاني بن مسعود الشيباني ثم خرج حتى أتى المدائن فلقي زيد بن عدي فقال له: يا ابن اللخاء لئن بقيت لك لألحقنك بأبيك. فقال زيد لكسرى: إن هذا الرجل إذا جلس على سريره ووضع التاج على رأسه ودعا بشرايه لم يظن أن لك عليه سلطاناً، فأمر كسرى بالنعمان أن يلقي بين أرجل الفيلة ففعل به ذلك فداسته الفيلة وقتلته، ولما انتهى أمر النعمان هذه النهاية المرعبة أرسل كسرى إلى إياس بن قبيصة يأمره أن يبعث له بولد النعمان بن المنذر وتركته من المال والإبل والخيل والسلاح، وكان النعمان أودع ذلك هاني بن مسعود فبعث إليه يعلمه بما كتب كسرى فآبى هاني بن مسعود أن يسلم شيئاً من تركة النعمان فكتب إياس إلى كسرى يعلمه بذلك فألقى كسرى على نفسه ليستأصلن بكر بن وائل وكتب إلى إياس يأمره بالاستعداد لمحاربتهم فيمن معه من طي وإياد وغيرهم، وكتب إلى قيس بن مسعود الشيباني وكان أحد عمال كسرى ليمنع العرب من دخول أطراف السواد، ويأمره أن يسير مع من معه من قومه ليعين إياساً على محاربة بكر بن وائل، ثم عقد كسرى لقائد من قواده يسمى الهامر في اثني عشر ألف رجل من أبطال أساورته ووجهه إلى إياس لمعاونته ثم عقد أيضاً له رمز جرابزين وكان من

قد صادفوا عصابة منا وسيدنا
كل يؤمل قتياناً ويطرف
قلنا الصلاح فقالوا لا نصلحك
أهل النبوك وغير فوقها الخصف
لما التقينا كشفنا عن جماجمنا
ليعلموا أننا بكر فينصرفوا
قالوا البقية والهندي يحصدهم
ولا بقية إلا النار فانكشفوا
وجند كسرى غداة الحنو صبحهم
منا كتائب تزجي الموت فانصرفوا
ججاجح وبنو ملك غطارفة
من الأعاجم في آذانها النطف
إذا أمالوا إلى النشاب أيديهم
ملنا ببيض فظل الهام يختطف
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم
حتى تولوا فكاد اليوم ينتصف
لو أن كل معد كان شاركننا
في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
لما أتونا كان الليل يقدمهم
مطبق الأرض يغشاهم بهم سدق
وظعننا خلفنا كحلاً مدامعها
أكبادها وجف مما ترى تجف
كما تناول الأعشى الحرب وتفاعل معها في مواضع أخرى
منها قوله:

وإن الحرب أمسى فحسب لها في الناس محتلما
حديداً نابه مستتداً قطعاً متخطماً قطما
أتانا عن بني الأحرا ر قول لم يكن أمما
فجاء القيل ها مزر عليهم يقسم النقسما
فلاقي الموت مكتنعاً وذهلاً دون مازعما
أتانا الضيم لا يعطو ن من عادوه ما حكما
قتلنا القيل هامرزاً وروينا الكثيب دما
بمثلهم غداة الرو ع يجلو العز والكرما
كتائب من بني ذهل عليها الزغف قد نظما
فلاقوا معشراً أنفاً غضاباً أحرزوا الغنما

فهل كان النصر المؤزر إلا ثمرة يانعة من ثمرات الوفاء
والإخلاص الذي الرّم بها هاني بن مسعود نفسه وقبيلته وغامر
بحياته وحياة القبيلة من أجله، وهل كان ما آل إليه التعمان من
مصيد مرعب إلا ثمرة من ثمرات الخيانة والغدر الذي أقدم عليه
مما جعله يدفع حياته وعزه وجاهة وسمعته ثمناً له.

■ مركز الدراسات والبحوث - أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية. ■

وصل السيف إلى منكبه فأبانه فخر الهامز ميثاً فكان أول قتيل
بين الصفتين وألقى الله عز وجل الرعب في قلوب العجم قولوا
منهزمين ولحق حنظلة بن سيار بهرمز جرابزين قائد العجم
فقطع طعنة خر منها ميثاً ودفع هاني بن مسعود فرسه في
طلب إياس بن قبيصة قائد جيوش كسرى في تلك المعركة حتى
لحقه ومعه قيس بن مسعود ذو الجدين فأراد هاني قتل إياس
فشفع له قيس بن مسعود بحكم قرابته بهاني وجميله معه فقبل
هاني شفاعة قيس وأغى إياساً من القتل وتبع الفرس خمسمائة
فارس من بني شيبان لا يلوون على شيء يقتلون كل من أدركوا
من الفرس حتى كان الليل وبلغت هزيمة الأعاجم كسرى في
المدائن، وذكر بعض المؤرخين أن ذلك بلغ رسول الله ﷺ فقال:
«هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبني نصر» يعني
باسمه ﷺ. أما كسرى فقد أسقط في يده واعتاز من ذلك غيظاً
شديداً ووقعت اللولولة والعويل في المدائن فندب كسرى الجنود
وفرقت فيهم السلاح والمال لمعاودة حرب بكر بن وائل إلا أن الظروف
الدولية المحيطة صرفت أنظار الفرس إلى ترقب الأحداث الجارية
في الإمبراطورية الرومانية، بينما كان العرب يبتهجون بالنصر
المؤزر الذي تحدى فيه العرب غطاسة العظمة الكسروية ومرغوا
أنفها في التراب وقفت البداوة تدافع عن شرف الأمة وتذود عن
عاداتها الأصيلة وتقاليدها العريقة وتفتح في سبيل ذلك أسوار
الموت الذي تراه أشرف من حياة الذل والهوان وما كان النصر
الذي أذهى العرب واقتروا به وأشاد به رسول الله ﷺ إلا
ثمرة في شجرة الوفاء العربي الذي أكسب أبناءه مجداً تليداً وعزاً
مخلداً. أما الشعراء العرب فانطلقوا يتغنون بما حققته القبائل
العربية من نصر وكان أكثر من ابتهج لذلك صناجة العرب
«الأعشى» الشاعر الجاهلي المعروف فراح يفاخر بالنصر الذي
صنعتة سيوف بكر وائل ورماحهم في ساحات الشرف والبطولة
فاستعرض في قصيدته بعض القيم العربية والتقاليد الأصيلة
وكانه يشير فيها إلى أن التزام بكر وائل بتلك القيم أدى إلى ذلك
النصر المؤزر فقال في مطلع قصيدته:

كانت وصاة وحاجات لنا كفف
لو أن صاحبك إذا ناديتهم وقفوا
على هريرة إذا قامت تودعنا
وقد أتى من إطار دونها شرف
إن الأعز أبانا كان قال لنا
أوصيكم بثلاث إنني تالف
الضيف أوصيكم بالضيف إن له
حقاً علي فاعطيه وأعترف
والجار أوصيكم بالجار إن له
يوماً من الدهر يتنبيه فينصرف
وقاتلوا القوم إن القتل مكرمة
إذا تلوى بكف المعصم العزف

